مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

أَدَبْ

بقلم الدكتور: سعدون السويح

لفظة «الأدب» مصدر والفعل منه «أدب» ومضارعه «يأدب» فهو «أديب»، وفي اللسان[1]: أدب الرجل يأدب أدباً فهو أديب. وقد اشتق المعنى الأصلي لهذه اللفظة من «الدعاء» ويبين صاحب اللسان[2] أن الأدب هو الذي يتأدب به الأديب من الناس، سمي أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح. وأصل «الأدب» الدعاء، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس: مدعاة ومأدبة.

وفي اللسان أيضاً[3]: «الأدب مصدر قولك أدب القوم يأدبهم بالكسر، أدباً، إذا دعاهم إلى طعامه، والآدِبَ الداعي إلى الطعام»، ومنه قول طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدِبَ فينا ينتقرْ

وقد شهدت لفظة أدب باشتقاقاتها المختلفة تطوراً دلالياً منذ صدر الإسلام، غير أنّ معانيها الأساسية ظلّت لأمد طويل مرتبطة بالدعوة إلى الخلق الحسن والتهذيب والظرف وحسن التناول ورياضة النفس، أي أن مجالها الدلالي ظلّ مرتبطاً بالمعاني الأخلاقية والتهذيبية.

وقد استخدمت لفظة «أديب» في الشعر القديم للبعير إذا ربض وذلّل، ويشير صاحب اللسان[4] إلى أن البعير إذا ربض وذلّل يقال له: أديب، مؤدب،

(1) لسان العرب، جمال الدين محمد بن منظور، المجلد الأول، مادة «أدب»، الناشر: دار صادر - بيروت.
(2) المرجع السابق.
(3) المرجع السابق.
(4) المرجع السابق.

ويورد في هذا الصدد بيتاً لمزاحم العقيلي يقول:

وهن يصرفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلّل

ومن هذا المعنى تطورت دلالة الفعل «أدب» ومطاوعه «تأدب» إلى «علم» و«تعلم»، وقد ورد هذا المعنى في حديث شريف برواية البخاري، وهو (أوصوا أنفسكم وأهليكم بتقوى الله وأدبوهم)[5]، وجاء في حديث آخر برواية الترمذي وأحمد بن حنبل؛ (ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن)[6].

ومن التأديب بمعنى التعليم والتهذيب وتقويم الأخلاق اشتقت لفظة «مؤدب» التي شاع استعمالها منذ العصر العباسي الأول، بمعنى «معلم الصبيان»، وقد كان الخلفاء يتخذون المؤدبين لأولادهم، أي يتخذون لهم معلمين ومربين خاصين بالمعنى الذي نفهمه اليوم.

وورد التأديب أيضاً والأدب بمعنى إنزال العقاب في كثير من كتب التواريخ القديمة نحو قولهم: (إن الخليفة قد بعث إلى العصاة بمن يؤدّبهم) وقد ورد هذا المعنى في خطبة الحجاج الشهيرة عندما قدم أميراً على العراق ودخل المسجد الجامع بالكوفة حيث قال: هذا أدب ابن نهية أما والله لأودبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن[7]..

ويبدو أن المجال الدلالي للفظة أدب قد ازداد شمولاً واتساعاً في القرنين الثاني والثالث للهجرة، فقد ظهر في القرن الثاني مثلاً (الأدب الصغير)[8] والأدب

---

(5) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، نشره د. أ. ونسنك، مكتبة بريل ـ ليدن.

(6) المرجع السابق.

(7) هذه العبارة قالها الحجاج بن يوسف الثقفي عندما أرسله عبد الملك بن مروان والياً على العراق، وقد قرأ على أهل الكوفة خطاب الخليفة ومما جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام «عليكم»...) فما ردّ أحد منهم شيئاً، فغضب الحجاج وقال عبارته التي أوردناها، ويبدو أن ابن نهية المشار إليه كان على الشرطة قبله. وخطبة الحجاج في أهل الكوفة مثبتة في كثير من التواريخ والأمالي والتراجم والأدب.

(8) الأدب الصغير لعبد الله بن المقفع، مكتبة البيان ـ دار القاموس الحديث ـ بيروت ـ المجموعة الكاملة ـ طبعة 1970م.

الكبير)[9] لابن المقفع، وربما توهم القارىء أن ابن المقفع قد وضع هذين الكتابين لمعالجة شؤون الأدب بالمعنى الفني الاصطلاحي الذي نعرفه اليوم للكلمة، بيد أن النظرة المتفحصة لهما سرعان ما تكشف أن مفهوم الأدب عند ابن المقفع ظل لصيقاً بالمعنى التهذيبي الأخلاقي وهو يقول في مقدمة كتابه (الأدب الصغير): وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عون على عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها، واحياء للتفكير، وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور، ومكارم الأخلاق إن شاء الله[10].

أما كتاب (الأدب الكبير) فهو أيضاً كتاب حكم وعظات ونصائح تحدث فيه ابن المقفع على آداب صحبة الملوك والولاة، وحقوق الأصدقاء ووجوب الحذر والاحتراس من الأعداء، كما أسهب في الحديث عن آداب المجالسة والمحادثة، وتحدث عن الزهد وما شابه ذلك في مجال تهذيب النفوس ورياضتها.

وفي القرن الثالث للهجرة، وضع ابن قتيبة كتابه الشهير «أدب الكاتب» وتتخذ لفظة «أدب» عند ابن قتيبة مفهوماً يخرج بها عن المعنى الأخلاقي ويجعلها ألصق باللغة وأساليبها والكتابة وفنونها، فالأدب في هذا الكتاب هو تهذيب اللفظ وتقويم اللسان، أي أن المجال الدلالي للفظة قد اتسع، وإن ظل محور هذا المجال الأساسي «التهذيب والتقويم».

والأمر الجدير بالملاحظة هو أنّ صلة الأدب بالكتابة وفنون القول قد أخذت في الرسوخ والثبات منذ عصر ابن قتيبة، غير أن مفهوم الكتابة عند ابن قتيبة لا يعني المفهوم الابداعي للكلمة فقد وضع كتابه لغرض تعليمي حتى ينتفع به المشتغلون بشؤون الدواوين والمراسلات، والمتعلمون والمتأدبون الذين يريدون تقويم أساليبهم ومعرفة معاني الألفاظ وأوجه استعمالها ومجانبة الوقوع في الأخطاء النحوية والصرفية واللغوية، فكتاب أدب الكاتب إذاً هو ألصق بكتب اللغة منه

---

(9) الأدب الكبير لعبد الله بن المقفع، الناشر السابق.

(10) الأدب الصغير لعبد الله بن المقفع، الناشر السابق، ص 37.

(11) أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة طبعة 1346هـ.

بكتب الأدب، وهو يقول في مقدمته للكتاب إنه جعله (لمغفل التأديب) وقسّمه (كتباً خفافاً في المعرفة، وفي تقويم اللسان واليد (الكتابة) يشتمل كلّ كتاب منها على فن)[12]..

ومن المعاني الأخرى التي شاعت للفظة أدب في العصر العباسي معنى يتعلق بآداب السلوك أو بما ينعته الغربيون اليوم بالاتكيت Etiquette، ونجد في تضاعيف كثير من كتب التراث إشارات إلى أدب المنادمة والمناظرة والشراب والأكل ومجالسة العلماء والملوك وغيرها من الأمور، وقد أفرد لبعض هذه الآداب فصول أو كتب.

ويتضح مما سبق أن دلالة لفظة أدب ظلّت واسعة بعيدة عن التحديد عند القدامى غير أن صلتها بفنون الكتابة والشعر والأساليب قد توثقت منذ العصر العباسي، ولقد شعر ابن خلدون في مقدمته باتساع دلالة هذه اللفظة عند سابقيه وعدم وجود حد أو تعريف واضح لها، فهو يقول عن «علم الأدب»[13]:

(هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم.. ثم انهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف..)

أما في عصرنا الحاضر، وعلى الرغم من أن كثيراً من المعاني المشار إليها آنفاً ما تزال مستعملة أو مألوفة، فإن المعنى الأساسي الذي صارت تثيره لفظة أدب في أذهاننا ـ ما لم تكن هناك قرائن سياقية أخرى ـ هو دلالتها الاصطلاحية الفنية، والأدب يعني بهذا المفهوم جميع ألوان أو أشكال التعبير الفني الإبداعي كالشعر والرواية والقصة والمسرحية والمقالة التي تتخذ من اللغة واسطة أو أداة لها، أي أن الأدب إبداع فني يتم باللغة ومن خلالها، فاللغة هي وعاء الأدب والوسط الذي ينتقل من خلاله، وكما أنّ الصوت لا ينتقل في الفراغ كما بين علماء الفيزياء بل لا بد له من الوسط الناقل، فليس هناك أدب دون لغة، غير

(12) المرجع السابق، انظر المقدمة، ص 9.

(13) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، انظر فصل (علم الأدب).

أن هذا لا يعني طبعاً أن الأدب هو الشكل الابداعي الوحيد إذ ثمة أشكال ابداعية أخرى كثيرة عرفها الإنسان كالرسم والنحت والرقص والتمثيل والموسيقى تتم بوسائط غير لغوية أو تلعب اللغة فيها دوراً جانبياً.

ومن الطريف الإشارة إلى أن ترجمة كلمة (أدب) في اللغة الانكليزية وفي كثير من اللغات الأوروبية الأخرى هي Literature وهذه الكلمة مشتقة من الأصل اللاتيني Littera، وهي لفظة معناها «الحرف» ومن اشتقاقاتها الأخرى المستعملة في الانكليزية اليوم كلمة Literate وهي صفة يوصف بها الشخص المثقف أو الضليع في الآداب أو الذي يعرف القراءة والكتابة، ويقابلها لفظة Illiterate وتعني «الأمّي»، ومن اشتقاقاتها أيضاً كلمة Letter وتعني الرسالة أو الخطاب، كما يستعمل تعبير Belles Lettres المأخوذ عن الفرنسية بمعنى الأدب أو الآداب[14].

وواضح أن التاريخ الاشتقاقي للفظة أدب في العربية وتطورها الدلالي يختلف عن مرادفها الانكليزي، فكلمة أدب في العربية ـ كما بيّنا ـ وثيقة الصلة في أذهاننا بالمعاني الأخلاقية والتهذيبية والتعليمية، وقد تطورت دلالتها من مجال التهذيب النفسي إلى مجال تهذيب اللفظ وحسن انتقائه، ثم استقرت دلالتها على المفهوم الاصطلاحي الذي نعرفه لها اليوم، أما نظيرتها في الانكليزية واللغات الاوروبية فقد كانت وثيقة الصلة منذ البداية بالقراءة والكتابة والحروف، ولم تعرف لها دلالات أخلاقية.

ولعل من الجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن تعبير «أدبيات» الذي شاع استخدامه في الآونة الأخيرة عند الحديث عن المادة المكتوبة الصادرة عن مؤتمر أو ندوة أو ملتقى يبدو متأثراً بالاستخدام الأوروبي للفظة Literature التي من معانيها «المادة المكتوبة عن أي موضوع أو مجال من المجالات»، فيقولون مثلاً Scientific Literature أي الكتابات العلمية، ويقصدون بذلك ما كتب في مجال الكيمياء والطبيعة والرياضيات وغيرها حول موضوع من المواضيع. ومردّ هذا الاستعمال في ـ تصوّري ـ هو ارتباط المعنى الأساسي لكلمة «أدب» في اللغات الأوروبية بالكتابة.

(14) انظر مادة.